" رادوا المناهل في الدنيا، ولو وجدوا إلى المجرّة ركبًا صاعدًا، ركبوا "

بهذه الكلمات وصفَ شاعر النّيل "حافظ إبراهيم" اللّبنانيّين، ولا أُخفيكم سرًّا إن قلْتُ إنّنا اليوم بعيدون كلّ البعدِ عمّا كنّا نتّصف به سابقًا. غرباءُ عن اللّبنانيِّ الّذي اخترع زوارقَ للفكرِ منذ ثلاثة آلاف سنة، حروفًا أبجديّةً حمّلها أفكاره وأورَثَنا إيّاها. لولا شعوري - وفي ظلّ هذا الاكتئاب الجماعيّ الّذي يطغى على كلّ فئات المجتمع - بالحاجة الى تذكيركم ببعض الحقائق، لما خاطبتُكُم اليوم. حقائق اختبأت في داخلكم كما تختبئ ضحايا الحروب في الملاجئ. حروب؟ لقد شهدْتُم خلالَ الّسنة الماضية ما عجزَتْ سائرُ الحروب أن تقترفَهُ.

بكيتم، لا على سقوط شهداء في سبيل الوطن، بل على سقوط الوطن من غير سبيل. أعرف أنّكم جميعًا، طلّابًا ودكاترة ومديرين وموظّفين، تشعرون من صميم قلوبكم بإحباط ما بعده إحباط ، فتعتقدون أنّ داءَ لبنانَ داءٌ ما ورائيّ لا ينفعه أيُّ دواء أرضيّ، وهذه حقيقة حال الوطن. إلّا أنّكم نسيتُم ما هي حقيقتكم أنتم، طلاب وأفراد الجامعة اليسوعيّة. نسيتُم أنّ في أعماق كلّ واحد منكم تشتعل نيران الإيمان. وقد تتساءلون عن أيّ إيمان أتحدّث؟ أتحدّث عن ذلك الإيمان الّذي يفتح لكم أبواب التّأمّل العميق في الحياة وما بعدها، وفي حبّ الطّبيعة الّتي تحيط بكم، وهالتها الّتي تحوم حولكم. إيمان يبعث فيكم روح التحرّر والثورة، والحنين إلى الوطن والإنسان.

أنسيتُم هذا كلّه؟ أنسيتُم أنّكم خيرُ من يحظى بتعدّديّة اللّغات الّتي تُتقنونها؟ فمن لغة "موليير" إلى لغة "المتنبّي"، ومرورًا بلغة "شكسبير" و"سرفانتس" و"دانته" و"غوته" وغيرها. تنفتحون على ثقافات ومجتمعات تتخطى المحلّيّة والإقليميّة لتصلَ إلى العالميّة. ناهيكم عن ثنائيّة الثّقافة (Biculturalisme) المنطبعة في ذاتكم، والّتي تمكّنكم من تحقيق طموحات مؤسّستكم وأهدافها التربويّة على أكمل وجه. فأيّة أبحاث جامعيّة أنجح من أبحاثكم؟ وأيّ تعطّش للعلم والمعرفة أشدّ من تعطّشكم؟ وأيّ تطبيق للمعلومات المكتسبة أفضل من تطبيقكم لها؟

ولعلّ أعظم قوّة تمتلكونها هي أنّكم جميعًا، طلّابًا وأساتذةً، وشبابًا وكهولًا، تشكّلون روحًا واحدة في آلاف الأجساد، وذاتًا واحدة في آلاف الكيانات، وحلمًا واحدًا في أجيال مختلفة عجزت عجلة الزمن عن مواكبتها في مسيرتها. نعم، أنتم جسدٌ واحد، ولكنّكم

لستُم وحدَكم في هذه البقعة المقدّسة من الأرض. فطلّاب الجامعات اليسوعيّة حول العالم في ازدياد لا انقطاع له، ومع ازدياد أعدادهم يقوى إيمانهم، وتتعزّز الوحدة في ما بينهم، وتشتدّ الرّابطة الّتي تجمعهم، حتّى يصيروا لوحة فرديّة لذاتهم وكيانهم حول العالم. فأنتم لستم وحدكم، بل أنتم واحد في لبنان.
ولا شكّ في أنّ الشهيد "كمال جنبلاط"، أحد أبرز أبناء الجامعة اليسوعيّة، كان خير دليل على روح الوحدة هذه عندما قال : " القيادة الجديدة القادرة على بناء لبنان حقيقيّ ليست إسلاميّة ولا مسيحيّة بل وطنيّة، علاقتها بشعب لبنان الواحد، وبلبنان الشعب الواحد."

أنتم منابع الحريّة الّتي حُرمَ منها أجدادكم في أوطانهم. بكم استجابت الحريّة لطلب أمين الرّيحاني عندما خاطب تمثالها في نيويورك قائلًا: " متى تحوّلين وجهك نحو الشرق، يا أيّتها الحرّيّة...".
روحكم كلغة جبران خليل جبران، "صبيّة غارقة في بحرٍ من أحلام شبابها"، فاستقوا من آبار طاقاتكم الشبابيّة كي تتمكّنوا من الغوص في يمّ أحلامكم الّتي شاخت. وعسى ألّا تنسوا من أنتم: أمل اليوم وركن الغد. من صُنع أيديكم سيكبر لبنان، ويزدهر، وينتعش، حتى يأتي ذلك اليوم المنتظَر عندما تنقلب فيه الموازين رأسًا على عقب، فتُلقَّب سويسرا بلبنانَ الغرب.
لا تتأثروا بأقوال الّذي يلومكم على حبّ وطنكم، فيسألكم: "أتعشقونه وهٰذي حاله؟". لا تجيبوه إلّا بقلم الشاعر القَرَويّ "فوزي المعلوف"، حيث أجاب قائلًا: "يا حبّذا وطني على حالاته !".
لا يمكنكم التهرّب من المسؤوليّة الملقاة على عاتقكم في وجوب تمثيل لبنان في الخارج، وتمثيل لبنان في لبنان، والخارج في لبنان. ولعلّكم لا ترون سوى مشهد مظلم عندما تنظرون الى الأمام، فتذكّروا زميلكم أمين معلوف، الّذي تخرّج من صفوفكم، وعاش ما عشتموه من مآسي وأكثر فما منعه ذلك من أن يقول : " حتّى عندما لا نبصر نورًا في نهاية النّفق، يجب أن نؤمن بأنّ النور لا بدّ أن يظهر ".